المحاضرة الخامسة

[توشيح الخطب بآي القرآن والأشعار]

وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل، وفي الكلام يوم الجمع آي من القرآن، فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرقة، وسلس الموقع.

قال الهيثم بن عديّ: قال عمران بن حطّان: إن أول خطبة خطبتها، عند زياد- أو عند ابن زياد- فأعجب بها الناس، وشهدها عمي وأبي. ثم إني مررت ببعض المجالس، فسمعت رجلا يقول لبعضهم: هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن.

وأكثر الخطباء لا يتمثلون في خطبهم الطوال بشيء من الشعر ولا يكرهونه في الرسائل، إلا أن تكون إلى الخلفاء.

وسمعت مؤمّل بن خاقان، وذكر في خطبته تميم بن مرّ، فقال: «إن تميما لها الشرف العود، والعز الأقعس، والعدد الهيضل «١» . وهي في الجاهلية القدام، والذروة والسنام.

وقد قال الشاعر:

فقلت له وأنكر بعض شأني ... ألم تعرف رقاب بني تميم

وكان المؤمّل وأهله يخالفون جمهور بني سعد في المقالة، فلشدة تحدّبه على سعد وشفقته عليهم، كان يناضل عند السلطان كل من سعى على أهل مقالتهم، وإن كان قوله خلاف قولهم، حدبا عليهم.

وكان صالح المريّ، القاص العابد، البليغ، كثيرا ما ينشد في قصصه وفي مواعظه، هذا البيت:

فبات يروّي أصول الفسيل ... فعاش الفسيل ومات الرجل

وأنشد الحسن في مجلسه، وفي قصصه وفي مواعظه:

ليس من مات فاستراح بميت ... إنما الميت ميت الأحياء

وأنشد عبد الصمد بن الفضل بن عيسى بن أبان الرقاشي، الخطيب القاص السجّاع، أما في قصصه، وأما في خطبة من خطبه، رحمه الله:

أرض تخيّرها لطيب مقيلها ... كعب بن مامة وابن أمّ دواد

جرت الرياح على محلّ ديارهم ... فكأنهم كانوا على ميعاد

فأرى النعيم وكلّ ما يلهى به ... يوما يصير إلى بلى ونفاد

وقال أبو الحسن: خطب عبيد الله بن الحسن «١» على منبر البصرة في العيد وأنشد في خطبته:

أين الملوك عن حظّها غفلت ... حتى سقاها بكأس الموت ساقيها

تلك المدائن بالآفاق خالية ... أمست خلاء وذاق الموت بانيها

قال: وكان مالك بن دينار يقول في قصصه: «ما أشد فطام الكبير» .

وهو كما قال القائل:

وتروض عرسك بعد ما هرمت ... ومن العناء رياضة الهرم

ومثله أيضا قول صالح بن عبد القدوس:

والشيخ لا يترك أخلاقه ... حتى يوارى في ثرى رمسه

إذا ارعوى عاد إلى جهله ... كذي الضنى عاد إلى نكسه

وقال كلثوم بن عمرو العتابيّ:

وكنت امرأ لو شئت أن تبلغ المدى ... بلغت بأدنى نعمة تستديمها

ولكن فطام النفس أثقل محملا ... من الصخرة الصماء حين ترومها

[جهارة الصوت والتشديق في الخطب]

وكانوا يمدحون الجهير الصوت، ويذمون الضئيل الصوت، ولذلك تشادّقوا في الكلام، ومدحوا سعة الفم، وذموا صغر الفم.

قال: وحدثني محمد بن يسير الشاعر قال: قيل لأعرابي: ما الجمال؟

قال: طول القامة وضخم الهامة، ورحب الشدق، وبعد الصوت.

وسأل جعفر بن سليمان أبا المخش عن ابنه المخش، وكان جزع عليه جزعا شديدا، فقال: صف لي المخشّ. فقال: كان أشدق خرطمانيا ، سائلا لعابه، كأنما ينظر من

قلتين ، وكأن ترقوته بوان أو خالفة ، وكأن منكبه كركرة جمل ثفال. فقأ الله عينيّ إن كنت رأيت قبله أو بعده مثله.

قال: وقلت لأعرابي: ما الجمال؟ قال: «غؤور العينين، واشراف الحاجبين، ورحب الشدقين» .

وقال دغفل بن حنظلة النسابة، والخطيب العلامة، حين سأله معاوية عن قبائل قريش، فلما انتهى إلى بني مخزوم قال: «معزى مطيرة، علتها قشعريره، إلا بني المغيرة، فإن فيهم تشادق الكلام، ومصاهرة الكرام» .

وقال الشاعر في عمرو بن سعيد الأشدق:

تشادق حتى مال بالقول شدقه ... وكل خطيب لا أبا لك أشدق

وأنشد أبو عبيدة:

وصلع الرؤوس عظام البطون ... رحاب الشداق غلاظ القصر «٥»

قال: وتكلم يوما عند معاوية الخطباء فأحسنوا، فقال: والله لأرمينهم بالخطيب الأشدق! قم يا يزيد فتكلم.

وهذا القول وغيره من الأخبار والأشعار، حجة لمن زعم أن عمرو بن سعيد لم يسم الأشدق للفقم ولا للفوه.

وقال يحيى بن نوفل، في خالد بن عبد الله القسري:

بلّ السراويل من خوف ومن وهل ... واستطعم الماء لما جدّ في الهرب

وألحن الناس كلّ الناس قاطبة ... وكان يولع بالتشديق في الخطب

ويدلّك على تفضيلهم سعة الأشداق، وهجائهم ضيق الأفواه، قول الشاعر:

لحى الله أفواه الدّبى من قبيلة ... إذا ذكرت في النائبات أمورها

وقال آخر:

وأفواه الدبى حاموا قليلا ... وليس أخو الحماية كالضجور

وإنما شبه أفواههم بأفواه الدبى، لصغر أفواههم وضيقها.

وعلى ذلك المعنى هجا عبدة بن الطبيب حيي بن هزّال وابنيه، فقال:

تدعو بنّييك عبّادا وحذيمة ... فا فأرة شجها في الجحر محفار

وقد كان العباس بن عبد المطلب جهيرا جهير الصوت. وقد مدح بذلك، وقد نفع الله المسلمين بجهارة صوته يوم حنين، حين ذهب الناس عن رسول الله صلّى الله عليه وآله، فنادى العباس: يا أصحاب سورة البقرة، هذا رسول الله.

فتراجع القوم، وأنزل الله عزّ وجلّ النصر وأتى بالفتح.

ابن الكلبيّ عن أبيه عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: كان قيس بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف، يمكو حول البيت، فيسمع ذلك من حراء.

قال الله عز وجل: وَما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكاءً وَتَصْدِيَةً، فالتصدية: التصفيق. والمكاء: الصفير أو شبيه بالصفير. ولذلك قال عنترة:

الأسئلة:

١. بالرجوع الى المعاجم، تتبع الكلمات الآتية: (استطعم، خرطماني، الشدق، تصدية).
٢. ما وزن الكلمات الآتية الواردة في نص البيان والتبيين: (جمهور، جهير، تصدية، خرطماني، ترقوة).
٣. ما صفات الخطيب الناجح عند العرب؟
٤. زن الأبيات الآتية وانسبها الى البحور التي كتبت عليها:

وألحن الناس كلّ الناس قاطبة ... وكان يولع بالتشديق في الخطب

وكنت امرأ لو شئت أن تبلغ المدى ... بلغت بأدنى نعمة تستديمها

جرت الرياح على محلّ ديارهم ... فكأنهم كانوا على ميعاد

٥. اعرب ما تحته خط في العبار الآتية: (وسأل جعفر بن سليمان أبا المخش عن ابنه المخش، وكان جزع عليه جزعا شديداً)